



اليتيمة

بائعة الكبريت



فِي إِحْدَى لَيَالِي الشِّتَاءِ الْبَارِدَةِ، تَسَاقَطَتِ الثَّلُوجُ بِكَثَافَةٍ عَلَى
الْمَدِينَةِ، وَعَصَفَتْ رِيَّاحٌ شَدِيدَةٌ أَجْبَرَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَلَى
الْمُكُوثِ فِي بُيُوتِهِمْ. أَمَّا مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ لِإِقْتِنَاءِ هَدَايَا عِيدِ الْمِيلَادِ
فَقَدْ لَبَسَ الثِّيَابَ الشِّتَوِيَّةَ. كَانَتْ فِي الْمَدِينَةِ بِنْتُ يَتِيمَةٍ تَعِيشُ مَعَ
أَبِيهَا غَلِيظِ الطَّبَاعِ يُعَامِلُهَا بِقَسْوَةٍ وَيَضْرِبُهَا.
خَرَجَتِ الْفَتَاةُ بَائِسَةً تَحْمِلُ فِي يَدِهَا عُلَبَ أَغْوَادِ الثَّقَابِ تُرِيدُ بَيْعَهَا.
وَأَصَلَتْ الْبِنْتُ السَّيْرَ فِي الشَّارِعِ يَلْسَعُهَا الْبَرْدُ الْقَارِصُ وَيُؤْلِمُهَا
الْجُوعُ الَّذِي يَكَادُ يَمْزِقُ أَمْعَاءَهَا، وَرَائِحَةُ الطَّعَامِ الْمُنْبَعِثَةُ مِنَ الْمَنَازِلِ
تُدْغِدُغُ أَنْفَهَا فَتَزِيدُهَا جُوعًا وَلَا أَحَدَ يَعْصِي بِهَا.



كَانَ شَعْرُهَا عَارٍ وَلِبَاسُهَا خَفِيفٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِظْلَةٌ تَقِيهَا
 الثَّلُوجَ وَلَا غِطَاءَ رَأْسٍ. كَانَ الْهُوَاءُ الْبَارِدُ الَّذِي تَتَنَفَّسُهُ يُؤْذِي
 جِسْمَهَا النَّحِيفَ. غَطَّتِ الْمِسْكِينَةُ فَمَهَا بِمِنْدِيلِهَا فَلَمْ يُخَفِفْ عَنْهَا
 مِنَ الْبَرْدِ شَيْئًا، وَبَيْنَمَا هِيَ تَسِيرُ عَلَى غَيْرِ هُدًى لَمْ تَتَفَتَّنْ لِمَخَاطِرِ
 الطَّرِيقِ فِي لَيْلَةٍ يُسْرِعُ فِيهَا النَّاسُ لِلْعَوْدَةِ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَالِإِحْتِفَالِ مَعَ
 ذَوِيهِمْ بِالْدَفِّ وَالْحَنَانِ. مَرَّتْ بِهَا عَرَبَةٌ مُسْرِعَةٌ يَجْرُهَا حِصَانَانِ
 صَدَمَتْهَا وَأَوْقَعَتْهَا أَرْضًا. طَارَ أَحَدُ نَعْلَيْهَا مِنْ رِجْلِهَا وَتَنَاثَرَتْ
 أَعْوَادُ الْكِبْرِيَّتِ فِي الطَّرِيقِ وَاخْتَلَطَتْ بِالثَّلُوجِ.

مَضَى سَائِقُ الْعَرَبَةِ فِي سَبِيلِهِ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِهَا، بَلِ اسْتَدَارَ
 قَلِيلًا وَهُوَ يَلْعَنُهَا لِأَنَّهَا اعْتَزَضَتْ طَرِيقَهُ وَكَأَنَّهَا هِيَ مَنْ صَدَمَتْ
 الْعَرَبَةَ بِهَذَا الْجِسْمِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَا يَكَادُ يَرَاهُ أَحَدٌ.



نَهَضَتِ الْمِسْكِينَةُ مُتَأَلِّمَةً مِنَ الصَّدْمَةِ وَمَشَتْ تَعْرِجُ حَافِيَةً الْقَدَمَيْنِ
مُمْسِكَةً طَرَفَ ثَوْبِهَا، وَهِيَ تَرْتَجِفُ مِنَ الْبَرْدِ وَلَا أَحَدَ يَلْتَفِتُ لَهَا أَوْ
يَهْتَمُّ بِهَا. مَرَّتِ الْمِسْكِينَةُ أَمَامَ نَافِذَةِ إِحْدَى الْبُيُوتِ وَظَهَرَ مِنْ وَرَاءِ
زُجَاجِهَا امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ الطَّعَامَ لِابْنِهَا.

فِي الطَّرِيقِ صَادَفَتْ سَيِّدَةً مَيَّسُورَةَ الْحَالِ، عَرَضَتْ عَلَيْهَا الْعُلْبَ
وَتَوَسَّلَتْ إِلَيْهَا أَنْ تَشْتَرِيَهَا، لَكِنَّ السَّيِّدَةَ رَفَضَتْ قَائِلَةً: "لَنَا مِنْهَا فِي
بَيْتِنَا الْكَثِيرِ" وَمَضَتْ لِحَالِهَا. أَحَسَّتِ الْيَتِيمَةُ بِجُمُودِ الدَّمِ فِي عُرُوقِهَا،
وَفَضَّلَتْ الْمَبِيتَ فِي الْعَرَاءِ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى مَنْزِلِ أَبِيهَا، فَهُوَ لَا يَقِلُّ
بُرُودَةً عَنِ الشَّارِعِ. رَاحَتْ تَذْرِفُ دُمُوعَ الْحُزَنِ وَالْأَسَى، وَتَبْكِي
حَظَهَا التَّعَسُّ الَّذِي خَانَهَا وَلَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْ بَيْعِ عُلْبَةٍ وَاحِدَةٍ.
كَانَ الثَّلْجُ يُحِيطُ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَقَدْ خَلَا الشَّارِعُ مِنَ الْمَارَّةِ.



لَمَّا أَرَحَى الظَّلَامُ سُدُولَهُ، وَاشْتَدَّ الصَّقِيعُ شَعُرَتْ بِالْوَحْدَةِ
وَمَمْلَكَةِ الْخَوْفِ. أَشْعَلَتْ الْمِسْكِينَةُ عُودَ الثَّقَابِ كَيْ تَتَدَفَّأَ
وَتُنِيرَ الْمَكَانَ. بَدَأَ أَمَامَهَا نُورٌ، تَخَيَّلَتْهُ مِدْفَأَةً، مَدَّتْ يَدَيْهَا
لِتَسْخِنَهُمَا، لَكِنَّ الْعُودَ سُرَّعَانَ مَا انْطَفَأَ وَانْطَفَأَ مَعَهُ النُّورُ
وَعَادَ الظَّلَامُ وَزَادَتْ شِدَّةُ الْبَرْدِ، أَشْعَلَتْ عُودًا آخَرَ فَتَخَيَّلَتْ
أَمَامَهَا مَائِدَةً مَلِيَّةً بِالطَّعَامِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْكَعْكَ، يَتَوَسَّطُهَا دِيكٌ
مَشْوِيٌّ وَحُلُوى فَمَدَّتْ يَدَهَا لِأَخْذِ قِطْعَةٍ لِتَأْكُلَهَا، لَكِنَّ الْعُودَ
انْطَفَأَ وَتَلَاشَتْ آمَالُهَا.

بَكَتِ الْمِسْكِينَةُ سُوءَ حَظِّهَا، وَأَشْعَلَتْ عُودًا آخَرَ فَرَأَتْ شُمُوعًا
مُشْتَعِلَةً ظَنَّتْهَا حَفْلًا بِمُنَاسَبَةِ رَأْسِ السَّنَةِ.



كَانَتْ الشَّمْعُوعُ تَرَسُمُ خَطًّا مُتَوَاصِلًا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَخْتَلِطُ
 بِالنُّجُومِ. تَابَعَتْهَا الْفَتَاةُ الْمِسْكِينَةُ بِبَصَرِهَا عَسَاهَا تَجِدُ حُلْوَى
 وَفَوَاكِهَ أَوْ طَعَامًا أُعِدَّ لِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ، لَكِنَّ الْعُودَ انْطَفَأَ
 وَخَابَ ظَنُّهَا. أَشْعَلَتْ عُودًا آخَرَ، فَأَبْصَرَتْ مِنْ خِلَالِهِ صُورَةَ
 جَدَّتِهَا الْمَتَوَفَاةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ وَتَذَكَّرَتْ الْأَيَّامَ الْحُلُوءَ الَّتِي قَضَتْهَا
 بِرِفْقَتِهَا حِينَمَا كَانَتْ تَغْمُرُهَا بِحَنَانِهَا وَعَطْفِهَا.
 مَدَّتْ لَهَا يَدَيْهَا وَصَاحَتْ:
 جَدَّتِي ! خُذِينِي مَعَكَ أَرْجُوكِ لَا تَذْهَبِي.



انطفأ العُودُ فغابتْ جدُّتها مِنَ المَشْهَدِ وَرَاحَتْ تُشْعِلُ الأَعْوَادَ
وَاحِدًا تِلْوَ الآخَرِ وَقَدْ اعْتَرَاهَا خَوْفٌ شَدِيدٌ أَنْ تَنْطَفِئَ الأَعْوَادُ
وَتَخْتَفِيَ جَدَّتُهَا الَّتِي تَرَجَّتْهَا بِحَرَارَةٍ أَنْ تَأْخُذَهَا مَعَهَا. لَكِنَّ الأَعْوَادَ
سُرْعَانَ مَا انْطَفَأَتْ كُلُّهَا وَخَيَّمَ الظَّلَامُ فَأُغْمِيَ عَلَى المِسْكِينَةِ.
تَقَدَّمَ طَيْفُ الجَدَّةِ مِنَ الفَتَاةِ وَضَمَّهَا إِلَيْهِ وَحَلَقَتْ رُوحَاهُمَا
فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ لَا جُوعَ وَلَا بَرْدَ وَلَا حِرْمَانَ.



فِي الصَّبَاحِ وَجَدَ السُّكَّانُ الْبِنْتَ جُثَّةً هَامِدَةً وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى
شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةُ الْبَرَاءَةِ، وَحَوْلَهَا أَعْوَادُ الثَّقَابِ الْمُحْتَزِقَةُ، وَلَا أَحَدٌ
يَعْلَمُ بِالْمَشَاهِدِ الَّتِي تَخَيَّلَتْهَا الْفَتَاةُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ،
وَالدَّفْنِ الَّذِينَ وَجَدْتُهُمَا مَعَ جَدَّتِهَا.

وَقَفَّ الْمَارَّةُ يَتَأَمَّلُونَ الْمَشْهَدَ وَبَكَوْا، وَلَوْ لَأَنْتَ قُلُوبُهُمْ وَسَخَتْ
أَيْدِيهِمْ وَنَظَرُوا إِلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ مَا بَكَوْا لَكِنْ، لَكِنْ هَيْهَاتَ!
كَانَ مِنْ بَيْنِ الْمَارَّةِ امْرَأَةٌ، نَظَرَتْ إِلَى الْجُثَّةِ فَتَذَكَّرَتْ أَنَّهَا عَرَضَتْ
عَلَيْهَا بِالْأَمْسِ بِضَاعَتَهَا الْمُتَوَاضِعَةَ فَرَفَضَتْهَا. تَأَسَّفَتْ الْمَرْأَةُ لِأَنَّهَا لَمْ
تَسْأَلْ نَفْسَهَا كَيْفَ تَعْرِضُ فَتَاةً كَهَذِهِ أَعْوَادَ الثَّقَابِ لِلْبَيْعِ.
أَدْرَكَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الْيَتِيمَةَ لَمْ تَجِدْ غَيْرَ ذَلِكَ لِتُسَدَّ حَاجَةُ الْأَكْلِ
وَالْمَأْوَى.